

النخيل في الحضارات القديمة

أ.د. عبدالباسط عودة ابراهيم

للتمر قيمة غذائية عالية، فهو فاكهة الصحراء و من الأغذية الاساسية لدى العرب ومن لزوميات الفطور واکرام الضيف، لذلك اهتمالعرب بالنخيل منذ القدم. كان البابليين القدماء يزينون بوابات المدن وممرات المعابد وعرش الملك بالنخيل وجريده وسعفه، ويعبدون إلهة النخيل، حيث يضعون على كتفيها جريدة وسعفه الكبير المتدلي بحيث تبدو ذات جناحين. وقد ورد ذكر 70 نوعا وأكثر من النخيل وأماكن انتاجه في السجلات التاريخية بالكتابة المسمارية وعرفت النخلة بشجرة الحياة في الزخارف الرمزية التي شاع استعمالها في العراق القديم، خاصة في عصر الآشوريين. وقد فرضت شريعة حمورابي غرامة كبيرة على من يقطع نخلة، و وجدت رسوما للنخيل وأوراقه في حضارة وادي النيل منحوتة على جدران وأعمدة المعابد التي تعود الى العصور الفرعونية ، وكان المصريون يقدمون للنخلة المقدسة قرابين الخيار والعنب والتين.. وقيلعن قصة النخلة بابل مسلة... ..أثارت درب قانون الحياة ... وزرعت أول نخلة ...و ملأت نور الحب في أكبر سلة وأضاعت للحضارة دربا سلك الأشراف و الأبطال ظله

وفي نص شعري يتحدث عن مدينة نيبور مسكن الإله السومري إنليل يظهر صراحة أن نيبور ، وليس دلمون ، هي أرض النخلة، (مدينتي نيبور وجدت قبل دلمونوقد نبتت فيها شجرة النخيل). لقد كانت النخلة من المعتقدات المقدسة في الخليج العربي وجزيرة العرب ويعود تقديس هذه الشجرة للعهود القديمة و لفترة اكثر من خمسة الاف سنة قبل الميلاد.

اولا- النخيل في حضارة وادي الرافدين

عرف سكان وادي الرافدين منذ أقدم الأزمنة فوائد النخلة وأجزائها ، فاستعملوا ثمرها واستخرجوا منه أنواعاً عدة من الخمر وكذلك الدبس والخل. واستعملوا البذور وقوداً ثم علفاً بعد سحقه. وصنعوا من السعف والجريدة الأثاث ولوازم الحياة اليومية، ومن اليافها الحبال، ومن خوصها الحصر والسلال، ومن جذوعها مادة للوقود وتسقيف البيوت. جاء في نص بابلي متأخر 365 فائدة للنخلة، وعددت أغنية تدمرية فوائدها بثمانمائة، وقال المؤرخ سترابون أن النخلة تزود البابليين بكل حاجاتهم عدا الحبوب. وعرف أهل الرافدين منذ أقدم الأزمنة طريقة تكاثر النخيل بالفسيل وهي الطريقة الغالبة، والتلقيح الاصطناعي، وترك المسافات المناسبة بين أشجار النخيل. وذكرت النصوص المسمارية درجات الجودة في بعض التمور، ولا تزال التعبيرات المستعملة في زراعة النخيل وجنيه تحتفظ بأصلها البابلي مثل (تال) وتعني الفسيلة و (تبليية)- آلة التسلق وصعود النخلة - والشيص (التمر الرديء غير العاقد). وصورت النخلة على أختام كثيرة وظهرت في مسلة من عصر اسرحدون الآشوري . ورد في الآثار العراقية إشارات كثيرة عن نخيل التمر، منها :

- (1) كان أول ظهور موثق لشجرة نخلة التمر في العالم القديم في موقعي تل عوبلي وتل أبو شهرين، في أقصى جنوب العراق 4000 سنة قبل الميلاد.
- (2) تم اكتشاف قصة آدم وحواء والشجرة المحرمة في أنقاض الحضارة السومرية التي يرجع تاريخها إلى 2700 سنة قبل الميلاد، حيث عثر على لوح يحتوي على رجل وعلى رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين وبينهما نخلة تحمل عدقين من التمر واليد اليمنى للرجل ممتدة قرب أحد العدوق بينما اليد اليسرى للمرأة تقطف التمر من العذق الثاني وهناك أفعى منتصبه وراء المرأة تحثها وتغريها على أكل ثمار الشجرة المحرمة وهي التمر.
- (3) يوجد في المتحف العراقي في بغداد ختم يرجع إلى عصر الأكديين (2730 سنة قبل الميلاد) يحتوي على رجلين بينهما نخلة التمر.
- (4) الآشوريون في العراق كانوا يقدسون أربعة أشياء هي [المحراث، والثور المجنح، والشجرة المقدسة، ونخلة التمر]، وعثر على هذه الأشياء منقوشة على تاج وضع في أعلى محراب للعبادة يعود إلى عصر أسرحدون (680 - 669 سنة قبل الميلاد).
- (5) تم اكتشاف لوح سومري يرجع إلى عهد الملك شوسن من السلالة السومرية الثالثة (78 - 1970 قبل الميلاد) يحتوي على وصف كامل لبستان نخيل يعود إلى معبد إله مدينة أوما، وقسم اللوح إلى ثمانية أقسام كل منها يمثل صنف من الأصناف المزروعة، وثبت عمر النخيل المثمر وغير المثمر وكمية الغلة.
- (6) تم العثور على العديد من النقوش التي تمثل الشجرة المقدسة عند الآشوريين ومن بين الرموز العديدة يبدو أن هذه الشجرة المقدسة ظهرت حولها ثلاثة آراء والرأي الأكثر رواجاً بين الباحثين يشير إلى أن هذه الشجرة هي النخلة، وأن بعض النقوش التي عثر عليها توضح آلهة تقديس النخلة و آلهة تقوم بعملية التلقيح الصناعي للنخلة.
- (7) حمورابي سادس ملوك السلالة البابلية الأولى والذي حكم 42 سنة بين (1792 - 1750 قبل الميلاد)، وهو واضع أول شريعة في التاريخ والمعروفة باسم مسلة حمورابي والتي تألفت من 282 مادة خصص سبع مواد منها عن نخلة التمر. ونذكر منها :

▪ المادة (59): عقوبة قطع النخلة

إذا قام رجل بقطع نخلة في بستان رجل آخر ودون ترخيص من المالك عليه ان يدفع 30 قطعة من العملة اي ان الغرامة قدرها 225 غ من الفضة على كل من يقطع نخلة واحدة.

▪ المادة(60) : نظمت أصول المغارسة والعلاقة بين صاحب الأرض والمغارس أو البستاني

[إذا منح رجلاً حقله إلى بستاني لزراعته كبستان نخيل ، يقوم البستاني بغرس الأرض بالفسيل والاعتناء به لمدة أربع سنوات، وفي السنة الخامسة يقسم حاصل البستان مناصفة بين صاحب الأرض والبستاني على ان يكون لمالك البستان الحق في الاختيار واخذ نصيبه اولاً] وهذا اذا اعطى شخصاً رضه لأخر ليغرسها بستاناً فليس له الحق في العوض لأربع سنين وفي السنة الخامسة يتقاضى نصف الناتج. ولقد كانت جميع الاتفاقات التي تخص البساتين ايام حمورابي تشير الى التمر وان غرس البستان يعني غرس النخل وان تحديد المدة بأربع سنين في تلك الشريعة مما يثبت على ان غرس النخل لا بد وان يتم بالفسيل لا بالنواة ،لان النخلة النامية من النواة تستغرق اكثر حتى تثمر

▪ **المادة (64): عملية التلقيح**

خصصت ثلث حاصل البستان من التمر إلى الفلاح أو البستاني الذي يقوم بعملية تلقيح الأشجار والعناية بها. وتعني اذا عهد مالك الى فلاح تلقيح نخيل بستانه والعناية بها فعلى الفلاح ان يسلم ثلثي الحاصل الى صاحب البستان ويأخذ لنفسه الثلث .

▪ **المادة (65): الاهمال وعدم العناية**

فرضت على الفلاح أو البستاني أن يدفع إيجار البستان كاملاً للمالك إذا سبب إهماله وعدم عنايته بالأشجار إلى قلة في إنتاج التمر. وهي اذا اهمل الفلاح تلقيح النخل وسبب نقصا في الحاصل فعليه ان يؤدي ايجار البستان اسوة بالبساتين المجاورة.

▪ **المادة (66) الاقتراض**

اذا اقترض سيد نقودا من تاجر وأعطى التاجر بستانا من نخيل وقال له {خذ التمر الذي في بستاني بدلا من نقودك} التاجر لم يقنع فعلى صاحب البستان أن يأخذ التمر الذي في البستان وعليه أن يدفع النقود مع فائضها طبقا للعقد بينهما. أما الزيادة في التمر الذي في البستان فيأخذها صاحب البستان.

(8) ورد ذكر عملية التلقيح في الرقم الطينية التي عثر عليها في بلاد ما بين النهرين منذ أواخر الألف الثالث قبل ولادة السيد المسيح (ع). وانه عرفوا ان النخل فحل وأنثى فسموا النخلة الأنثى Gishimmaruzinishtu والنخلة الفحل Gishimmaruzikaru وتعتبر عملية تلقيح أشجار النخيل من الطقوس الدينية لدى السومريين والبابليين .

(9) كان العراقيون القدماء يحتفلون بعيد زاكموك - Zagmuk - في الخامس عشر من شهر أيلول من كل عام بمناسبة جني التمور كعيد للخصوبة وتجدد الحياة ، وكان الزواج المقدس Hashadu حجر الأساس لذلك العيد الذي كان يعتبر بمثابة بداية للسنة الجديدة قبل أن يعطي مكانته المتميزة لعيد الأكيو - Akitu - ، ومع ذلك كان الإحتفال بالإله تموز العائد من الموت والإلهة عشتار المنتظرة عريسها الإلهي يمثل ذروة طقوس الفرح عند العراقيين القدماء ، وكانت شجرة الحياة المقدسة (النخلة) تمثل السمة المميزة والرئيسة لإحتفال الخصوبة هذا

(10) في رسالة من العصر البابلي القديم يُشبه المرسل أمه بالنخلة: طيبة الرائحة، مدلاً كونها خير وبركة. ولم تكن شجرة الحياة المقدسة في المنحوتات الآشورية سوى النخلة، وكانت الإلهة (انانا) -عشتار- ربة مخازن (عذوق) التمر، وزوجها (دي موزي)- تموز- رب التمور والحياة الجديدة في النخلة. وكان مسكن عشتار هو بيت عذوق التمر. وذكر اسم نخيل الهة في مدينة نيبور السومرية المقدسة حيث تجسدت القوة الموجودة في شجرة النخيل والتي تقف ورائها في دوموزي اما -او شومجال -انا (اله حصاد التمر) وفي ترنيمة من نيبور تصف الالهة انانا حبا لاله دوموزي بالقول) ايها الصبي، زوجي الشاب الذي احبه كثيرا واخلص له انا انانا كالتمر لغصن شجرة النخيل).

(11) خلال طقوس الزواج المقدس بين انانا ودوموزي تقابله لدى باب المستودع المقدس المعروف باسم جيبارو وهي ترتدي ابهى زينة لها من ازهار طلع النخيل حصدت لتوها والتي تمثل مجوهراتها وحليها الشخصية.

(12) في الادب السومري القديم وردت مناظرة بين النخلة وشجرة الاثل ويطلق على المناظرة باللغة السومرية (امندوكا) ففي بيت غرست نخله وشجرة اثل ونمتا مع بعض وكبرت الشجرتان حتى اقيمت وليمة في ظل شجرة الاثل التي

- نابرت النخلة فردت عليها النخلة انك شجرة لا نفع فيها فردت عليها شجرة الاثل تأملي في اثاث البيت وعدي
 الاخشاب التي اخذت مني لصنعه فالإنسان يتناول الطعام على منضدتي ويشرب الكؤوس المصنوعة من خشبي،
 فردت عليها انها تزود الكبار والاطفال بالمواد المغذية ولا تخلو موائد العائلة المالكة من ثمارها وانها دائمة الحضور
 كجزء من القرابين لإله القمر(سين) وانني اكبر منك ستة مرات بل سبع مرات وانا صنو الهة الحبوب (اشنان) وعلى
 مدى ثلاثة اشهر يفتات اليتيم والارملة والرجل الفقير على ثماري دون ان يسالوا الناس الحافا كما ان مذاق تمرّي حلو
 وسلالاتي موجودة في كل مكان. وقالت النخلة لنحتكم الى الاله وذهبتا الى الاله فقالت النخلة ان شجرة الاثل تنتقص
 مني وتدعي انها الافضل ، فقال الاله من قال ذلك وانت الشجرة التي حبتك الاله ودعتك ، انت المليئة بالخير فمن
 سعفك صنع السلال ومن ثمرك ناكل التمر ومن جذعك صنع البيت ولك اكثر من 300 فائدة اخرى اني ادعوك يا
 شجرة الاثل ان تتواضعي امام النخلة وان تتقدمك هي بالمنزلة والفائدة.
- 13) في القصيدة السومرية (انانا وشوكاليتودا) اشارة الى استخدام سعف النخلة في مقر الملك ووجود ثمارها في معابد كبار
 الالهة .
- 14) اكتشاف نوى متفحم في قبور المقبرة الملكية في اور يدل على ان التمر كانت تقدم كقرابين غذائية مناسبة للموتى
 خلال رحلتهم للدار الآخرة.
- 15) لفظ بعل (Boal) يشير الى اله الاراضي غير المروية ويطلق على كل ما لا يروى من النخيل.
- 16) ذكرت المصادر الآشورية نوعاً من النخل سمته (نخل الشمال)، ولعل ذلك يشير إلى نوع غير مألوف لا ينمو في
 جنوب العراق. ونوع آخر وصف بـ (نخل الجبل) ولعل ذلك يشير إلى نوع وحشي.
- 17) الملك الآشوري (أشور ناصر بال) الثاني (883.859 ق.م) مقام بغرس البساتين والحدائق قرب عاصمته (كالح)
 (النمرود الآن) وذكر في مسلته الحجرية المشهورة ، أنه غرس في إحدى بساتينها نحواً 42 نوعاً من الأشجار المثمرة
 والأشجار الأخرى ولاسيما الأشجار الصمغية، جمعها من البلدان المختلفة من غزواته الحربية ، وذكر لنا أيضاً صنف
 كل نوع من هذه الأشجار ومنها، النخل.
- 18) الملك الآشوري سرجون الثاني (721 ق.م. - 705 ق.م.) يتباهى بحملته الناجحة في جنوب غربي ايران وبعد
 عودته منتصراً من حملة شنّها على المناطق الجنوبية الغربية من إيران قال مفترخاً (قطعت نخيلهم التي يعتمدون عليها
 في غذائهم ، والتي تعتبر ثروة منطقتهم).
- 19) الملك سنحاريب قدم عشرين زقاً من التمر هدية إلى الآلهة الآشورية لانتصاره.
- 20) تمثالاً لملكسنطروق الأول (بيده اليسرى سعفه رمز النصر و البركة) وكذلك سمي يحمل سعفه بيسراه.
- 21) عبدت النخلة كما عبدت الاصنام وكانوا يعتقدون ان قوة الهية حلت في العبود فكان (عشتار) بصورته الذكورية يعبد في
 الاصل لا بوصفه اله الزهرة او الها ارضيا كاله سقي النخيل وجني الثمار والخصب فهو من اقدم الاله التي عبدت ،
 وعبدت عشتار بصورتها المؤنثة أي انها الهة الخصب ممثلة بالنخلة .
- 22) يذكر بعض المؤرخين أن البابليين طوروا زراعة النخيل على ضفاف الفرات قبل الميلاد بخمسة آلاف عام، واستخدموا
 التمر في العلاج على صورة لبخه لعلاج الرضوض والأورام والدمامل والقروح والكلدانيون كانوا يدقون نوى التمر
 وينقعونه ويستخدم طعاماً للأبقار والاعنام بينما ادخل البابليون والاشوريون التمر في بعض الوصفات الطبية منها

(استعمال التمر في معالجة الدمامل والقروح على شكل لبخة) و (استخدام التمر مع الحليب لمعالجة عسر البول)
والتمر مع ماء الورد للمعدة) ومسحوق النوى وماء الورد لعلاج العيون.

23) الشجرة الشاذة وغير العادية ينظر اليها كرمز للضلال والانحراف وظهر في ادب التشاؤم في بلاد وادي الرافدين القديمة كذئير للشعر وكما في النص التالي:

{في بابل اثمرت شجرة نخيل ذكر تمورا وشوهدت نخلة بسة رؤوس عليا وفي اعلى شجرة اخرى انتجت فسيلة حزمة من التمر وانجبت شجرة اخرى زهور الطلع في شهر تبيت (الشهر العاشر) من تقويم بلاد الرافدين القديمة وفي احدى المرات انتجت اشجار نخيل ثمارها تلو الاخرى في البساتين وشوهدت ثمار التين وهي تنمو فوق اشجار النخيل}.

24) استخرج سكان بلاد الرافدين القديمة عصيرا حلوا من التمر وهذا العصير التمري او عسل التمر يؤكل مع الخبز ويستخدم كعنصر مكون في صناعة بعض انواع الخبز وايضا كمادة اضافية في صناعة الجعة من الشعير كما ان هناك نوعا اخر من الجعة تصنع من التمور تعرف بالجعة الحلوة وكانت تحظى بشعبية في منتصف الالفية الاولى قبل الميلاد ويحتسبها الجميع من العامل العادي الذي يحصل عليها كجزء من تموينه الغذائي الى الملك نفسه وورد في احدى السجلات من مدينة اوروك نص يشير الى تزويد 200 من الاوعية الضخمة من الجعة الحلوة المصنوعة من التمور الى قصر كامبايس الملكي (529-522) قبل الميلاد.

25) تشير المخطوطات المسمارية الاشورية والبابلية الى استخدام خشب النخيل في صناعة الزوارق والاوراق وفي صناعة الحصائر والفصائل والعذوق في نسج الحبال والثمار لتزويد الوقود بينما يستخدم الكافور الخالي كمكنسة واجزاء المحور الرئيسي في صناعة السلال وقلوب النخيل من ضمن هدايا الزفاف كقرايين في احتفالات الزواج السنوية للإلهة(بو). وتستخدم جذوع النخيل وخاصة الاشجار المذكورة كدعامات رئيسة لأسقف المنازل وكأعمدة.

26) التعويذات الاشورية وضعت شجرة نخيل سوداء فوق راس شخص مريض {ياشجرة النخيل النقية اللامعة تنمو في البساتين كمظهر للبدن ، ملائم لطاولة القرايين وكغطاء يليق بمكتب الملك، ياشجرة النخيل الجبارة والقوية كالأبطال ... تقف شامخة في اخدود طاهر ونقي ، قوتها تتسامى لتصل الى اعناق السماء. ايجيسيجسج البستاني الاكبر ل انو ابو الالهة يقطع سعف النخيل بيديه الطاهرتين ويأخذها راهب التعاويذ في اريدو مبعوث أيا (اله المحيط تحت سطح الارض) ويترنم بتعويذة اريدو} .وفي تعويذة مؤثرة يضع السعفة فوق رأس المريض ويربطها حول اوصال الرجل ابن الهة. ومن اجل ربط اوصال الرجل المريض بسعف النخيل يتم الراهب الذي يقوم بإجراء التعويذة (يلعب دور الاله ماردوك) لفصل السعفة وربطها في اوصال الرجل المريض لطرد المرض والموت الشرير عنه ' وفي تعويذة اخرى يطلب من ماردوك ضرب سرير المريض بسعفة النخيل التي يمسكها بيده اليمنى بينما في حالات اخرى يطلب من الرجل المريض او شكل طيني يمثله الامساك بفسيلة نخلة حتى يتم ازالة جميع ذنوبه ومعاصيه وتطهيره من كل دنس.

27) تذكر المصادر التاريخية أن النبي إبراهيم عليه السلام ولد في أور (المقير) جنوب العراق وتبعد حوالي 15 كيلو متراً من الناصرية التي تقع جنوب بغداد بحوالي 250 كيلو متراً، حيث النخل، وقد ولدته أمه تحت ظلال النخيل أيضاً، وقد تأثر هذا النبي عليه السلام بالتمر وكان يهتم بزراعة الفصائل والتلقيح وجني الرطب والتمر بالنخيل أينما حل في الشام ومصر ومكة المكرمة والقدس.

28) نشر عالم السومريات الأمريكي (صامويل نوح كريمر) في المجلدات الشرقية 1949 ترجمة لنص سومري يتحدث عن نشأة أول نخلة في الكون، وقد ترجم هذا النص الشاعر العراقي شوقي عبد الأمير في كتيب بعنوان (ميلاد النخلة 2004) و أن تسمية العراق بأرض السواد، تعود في حقيقتها إلى النخيل، ذلك إن عرب الجزيرة حين دخلوا العراق، بعد الفتح الإسلامي، رأوا خضرة النخيل عن بعد فتساءلوا ما ذلك السواد؟ وتأتي الأساطير السومرية لتؤكد مرجعية السواد متعدد الدلالات في تشكيل نخيل أرض الرافدين وملاحمه الأولى. ابتداء من هذه الأسطورة حيث يأمر الإله أنكي الغراب بأن يسرق الكحل الأسود من خزانة سحرة أريدو، ويخلق به قرب الأهوار ليرشه بذوراً سوداء لشجرة خضراء، هي مزيج من السحر والخرافة والقداسة. يتدخل (الغراب الأسود) والكحل الذي سرقه ، إذًا، في تعزيز فكرة السواد في أرض الرافدين.

(أنكي" كبير آلهة السومريين فوق "زقورة أور" ينظر إلى أرض العراق فيرى المياه تتدفق والطين يخفق بالحياة والمصائر الدراماتيكية التي تحبل بها هذه الأرض فيلحظ شيئاً ناقصاً في هذه الجنة الأرضية.

شيء ما ينقص أرض السواد التي يتدفق فيها الرافدان كشرابين مفتوحين من الخير واللغات.

لا نعرف ماذا كان ينقص هذه الأرض في نظر كبير الآلهة، فعناصر الحياة التي تتكرر في الأساطير السومرية تعلي من شأن النعجة . الأم . (بسبب حليبها على الأرجح) والشعير والكتان، أهو النخلة؟

شجرة باسقة ذات ثمار حلوة؟ شجرة شاملة المنافع؟

لعل هذا ما دار في خلد. فما هو يأمر الغراب أن يمثل بين يديه.

الغراب الذي كشف لقابيل كيف يوارى جثة أخيه القتل "هابيل" تحت الثرى، لينشأ أول قبر على الأرض، هو نفسه الذي توكل إليه مهمة غرس أول نخلة أيضاً. يأمر "أنكي" الغراب أن يسرق كحل سحرة "أريدو" المخبأ في الوعاء اللازورد الموجود في غرفة الأمير الذي لا بد أنه يضم أفضل مقتنياته ومنها قارورة الكحل.

يقول له: خذ القارورة واسحق الكحل سحراً، ثم ابذره بين الحواشي المتاخمة للأهوار حيث ينبت الشجر المعمّر، فيصدع الغراب لأمر سيده، يسحق الكحل وينثره بين الحواشي المتاخمة للأهوار لتطلع شجرة لم ير أحد مثلها قط.

هكذا تولد النخلة على يد الغراب. من الكحل وليس من أي شيء آخر.

لا نقول لنا الأسطورة لماذا الكحل، تحديداً، هو البذرة الأولى للنخيل. هل لأنه ثمين؟ أم لأنه زينة العين؟ ولكن، من المؤكد، أن للأمر علاقة بالعين، لذلك صار لسعفها شكل الحاجب.

أما مواصفات هذه الشجرة التي "لم ير أحد مثلها قط" فهي بحسب الملحمة السومرية:

"لسانها الطلع يعطيك لبًا، لحبتها، الألياف تعطيك حصيرا

فسائلها التي تحيط بها تعطيك أدوات القياس،

أهي لهذا موجودة في أراضي الملك: جريدها يرافق الأوامر الملكية، تمرها يتدلى أعذاقا بين سعفها الكثيف، تمرها ندور في معابد أكبر الآلهة) .